﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾ [النساء: 170]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين صدق دين الرّسول ونهجه وبين الدّعوة إلى هدايته

لَمَّا أجابت الآيات السَّابقة عن شُبَه اليهودِ، وبيَّنت فسادَ طريقتهم، وأظهرت صدق الرَّسول ﷺ وصحّة دينه؛ ناسب أن يتوجَّه الخطاب العامُّ الَّذي يعمُّهم، ويعمُّ غيرَهم في الدَّعوة إلى دينه ﷺ، والإيمان به وبرسالته[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الدّعوة إلى اتّباع الحقّ الّذي جاء به الرّسول، ومن كفر فالله غنيّ عنه

خاطَب الله تعالى جميعَ المكلَّفين، بأنَّ ما جاءهم به رسولُ الله ﷺ هو الحقُّ من عنده جلَّ وعلا، فعليهم أن يُؤمنوا به، وهذا الإيمان خيرٌ لهم في الدّارين ممَّا هم عليه من الجحود والتّكذيب، فإنْ أَبَوْا إلَّا الكفر، فإنَّ الله غنيٌّ عنهم وعن إيمانهم، فهو الَّذي يملك السَّموات والأرض وجميع ما فيهنَّ، مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، ولا يَنْقُصُ كفرُهم من ملك الله وسلطانه شيئًا، والله عَلِيمٌ بما أنتم صائرون إليه من الهداية أو الغواية، والطّاعة أو المعصية، حَكِيمٌ في أمره ونهيه وتدبيره[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة النِّداء بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا: أداة نداء، والنِّداء بـ (يا) يكون للبعيد،

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.

(2) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 104.

ثمَّ يزاد عليها (ها) الَّتي تفيد التَّنبيه، وينادى بها للبعيد حِسيًّا، وللبعيد معنويًّا أيضًا، والنِّداء من الله تعالى إلى النَّاس كافَّة، قال ابن عباس: يريد المشركين[1]، والعبرة بعموم اللَّفظ.

النِّـداء بالآكد الأبلغ، أظهر في السّياق وأعمق

وكثر النِّداء في القرآن بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾؛ لاستقلاله بأوجه من التَّأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأنَّ كلَّ ما نادى الله تعالى له عباده: من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدَّارجة عليهم، وغير ذلك ممَّا أنطق به كتابه؛ أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ[2].

دلالة التَّعبير بلفظ (النَّاس) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

منهج القرآن إقامة الحجّة على أهل الكتاب

ورد التَّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، لأنَّ الحُجَّة إذا قامت عليهم بشهادة الله تعالى على صدق نبوَّته ﷺ، وعلى ما جاء به، والملائكة من بعده شهدوا؛ دلَّ ذلك على أنَّ غيرهم من باب أولى تقوم عليهم الحُجَّة.

دلالة الإتيان بالنِّداء، بعد الحديث عن الصّدِّ والظّلم:

نداء الله فتح لباب الأوبة إلى حظيرة الإيمان

لمَّا ذكر الله في الآيات السَّابقة صورًا من عناد أهل الكتاب والمشركين وتعنُّتهم، وذكر الوعيد الَّذي سيلقونه إن لم يتوبوا من كفرهم، وهو الخلود في جهنَّم؛ نادى عليهم ليفتح لهم الباب للعودة إلى حظيرة الإيمان، وهذا دليلٌ على رحمته بخلقه، حيث ناداهم تنبيهًا لهم، وتوجيهًا لقلوبهم نحو التَّصديق بنبوَّته ﷺ.

دلالة بدء النِّداء من غير ﴿قُلْ﴾، خلاف ما ورد في بعض الآيات القرآنيّة:

لذّة المناداة كلذّة المناجاة، كلاهما قـــرب ووصـــل بالله

إنّ دلالة بدء النِّداء من غير ﴿قُلْ﴾، كما ورد في بعض الآيات نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [يونس: 104]،

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/141.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/90.

يلمح فيه أنّه: لمَّا كانت هذه الآية تحمل أمرًا بالتَّكليف، وهو الإيمان، في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، والتَّكليف فيه مشقَّة على النَّفس، وهذا يقتضي وجود ما يعبِّر عن راحة تقابل هذا التَّكليف، وتلك الرَّاحة تظهر في مناداته سبحانه عليهم بذاته، عند ذلك يتحوَّل التَّكليف الشَّاقُّ إلى يسير؛ لأنَّه يشعر بلذَّة المناداة من قبل ربِّه.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دون (البشر) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

خطاب الله للنّاس توجيه وتحديد لأصول العلاقة بالله

اختار لفظ النّاس؛ لأنَّه اسم عامٌّ لبني آدم، ففيه إشارة إلى عموم رسالته ﷺ، فلا يقف عند أهل الكتاب ولا المشركين، بل كلُّ من يصدق عليه لفظ النّاس؛ مطالبٌ بالإيمان به وبما أنزل عليه، ولم يستعمل لفظ (البشر)، ومعناه الإنسان الواحد رجلا كان أو امرأة، ويقال للجمع بشر، ولفظ البشر لا يصلح هنا للمناداة، لأنّ أصل الدّلالة للفظ (بَشَر)، من ظهور الشّيء مع حسن وجمال، وسمّي البشر بشرا لظهورهم[1]، والخطاب بلفظ النّاس أولى، وهو معهود في الخطاب القرآنيّ، لتذكير النّاس بما يصلح أمرا أو نهيا أو تنبيها، ولذلك أثر هذا اللّفظ في موقعه من الآية.

دلالة الإتيان بـ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾:

أثر تأكيد الكلام بجملة من المؤكّدات

دلَّت ﴿قَدۡ﴾ على التَّأكيد والتَّحقيق لنبوَّته ﷺ، وهي بمنزلة التَّأكيد بتكرير الشَّهادة، والتّقرير لِأَحَقِّيَّة المشهودِ به، والتّمهيدِ لما يعقُبه من الأمر بالإيمان.

دلالة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ في قوله: ﴿جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

دلالة التّعبير بالرّسول دون النّبيّ في الآية

قوله: ﴿جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: دلالة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، للعلم به، ولِأَنَّ أَهْلَ الكِتابِ قَدْ بُشِّرواْ بِهِ، وَكانوا يَنْتَظِرونَ بِعْثَتَهُ، وكان اختيار التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتأكيد وجوب طاعته، وللإشارة

(1) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (بشر).

إلى أنَّه له شرع جديد مستقلٌّ، مصدَّقٌ ومهيمنٌ على ما سبق من الكتب، ولو عبَّر بالنَّبيِّ، لتوهَّم أهل الكتاب أنَّه تابعٌ لشريعتهم.

دلالة التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾:

إرسال الرُّسل للتَّربية والتّعليم من عطاءات الرُّبوبيَّة

عبَّر بلفظ الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين للإيذان بأنَّ ذلك لتربيتهم وتبليغِهم إلى كمالهم اللَّائقِ بهم، ترغيبًا لهم في الامتثال بما بعده من الأمر[1]، ولأنَّ لفظ الرُّبوبيَّة مع إضافته إلى ضمير المخاطبين، فيه تقوية لدواعي إقبالهم على التَّصديق بما جاء به الرَّسول ﷺ، وفيه ترغيبٌ للإيمان بالله ﷻ؛ لأنَّه هو الخالق والمربِّي لهم.

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

دلالة التَّعبير عن القرآن بالحقِّ، دون لفظ آخر

دلَّت هذه الباء، على أنَّ كلَّ ما جاء به الرَّسول حقٌّ، لا يعتريه الباطل، وصدق ليس فيه كذب، وبذلك يخرج ما نُسب إلى الرَّسول ﷺ، وقد عبَّر عن القرآن بلفظ (الحقِّ)؛ ليردَّ على مزاعم أهل الكتاب والمشركين، وللإشارة إلى ثبوته وعدم تغييره؛ لأنَّ معنى الحقِّ: الشَّيء الثَّابت الذي لا يتغيَّر ولا ينسخ، وفي ذلك إشارة إلى نسخ الكتب السَّابقة، لما أصابها من التَّحريف والتَّغيير والنَّسخ.

دلالة الإتيان بالفاء في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾:

الإيمان سعادة في العاجلة، وفوز في الآجلة

الفاء سببيَّة؛ للدَّلالة على تأكيد إيجاب ما قبلَها لما بعدَها، أي: فآمنوا به، وبما جاء به من الحقِّ[2]، أو الفاء فصيحة؛ لإفصاحها عن شرط مقدَّر، والتَّقدير: إذا كان الأمر كما عرفتم؛ فآمِنوا؛ يكن الإيمان خيرًا لكم؛ لأنَّه يزكِّيكم، ويطهِّركم من الأدناس الحسِّيّة والمعنويَّة، ويؤهِّلكم للسّعادة الأبديَّة[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/66.

دلالة الإتيان بالأمر ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ دون (انتهوا):

من متطلّبات الإيمان الإقبال على الطّاعة، و الازدجار عن المعصيّة

جاء التّعبير بالإيمان؛ لأنَّ صدر الآية ذكر سبب الإيمان، وهو مجيء الرَّسول بالحقِّ، فناسب التَّعبير بالإيمان، أمَّا الآية الثَّانية؛ فجاءت بعد قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ [النّساء: 171]، فلمَّا نهاهم عن الشِّرك والتَّثليث؛ ناسبه الإتيان بالنَّهي في قوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النّساء: 171].

ثمرة تنوُّع الأوجه الإعرابيّة في السّياق الواحد:

كثرة المعاني في الكلام القليل، من بلاغة البيان الأصيل

اختلفت أقوال النُّحاة في إعراب ﴿خَيۡرٗا﴾: فأعربها الكسائيُّ: خبرًا لكان المحذوفة مع اسمها، والتَّقدير: فآمِنوا؛ يكن الإيمان خيرًا لكم، وأمَّا الخليل وسيبويه؛ فيقدِّران: واهتدوا بالإيمان؛ خيرًا لكم، أي: ممَّا أنتم عليه، وقال الفرَّاء: فآمِنوا إيمانًا خيرًا لكم، فانتصابه على أنَّه صفة لمصدر محذوف[1].

دلالة التَّعبير بـ (إنْ) في قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

الأصل الفطرة، والكفر انسلاخ من فطرة الإيمان

عبّر بقوله: ﴿وَإِن﴾ الشّرطيَّة الَّتي تفيد الاحتمال والظَّنّ، وفي إيثار التَّعبير بها دلالة على أنَّ الأصل عدم الكفر، بتكذيب الرَّسول ﷺ، وما جاء به، ويقابلها العكس.

دلالة حذف جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

الآية تحوي تهديدا وإنذارا ووعيدا للكافرين المعاندين

جواب الشَّرط محذوف دلَّ عليه الخبر: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وهذا خبر يدلُّ على الاستغناء، والتقدير: فهُوَ سبحانه غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ إيمانِكُمْ، ومَنْ هذا شأنُه، فهو قادرٌ على تعذيبكم بكفركم لا محالة، أو: فمن كان كذلك؛ فهو غنيٌّ عنكم وعن غيركم لا يتَضرَّر بكفركم، ولا ينتفع بإيمانكم، أو: فمَنْ كان كذلك؛ فله عبيدٌ يعبُدونه، وينقادون لأمره[2]، وفي الآية: تهديد وإنذار ووعيد للكافرين.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/388.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/139، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/259.

دلالة عدم الإتيان بالموصول والظَّرف مع لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

قصد التّنصيص على الإفراد شرط في ذكر المحذوف المراد

في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، يلاحظ عدم الإتيان بالموصول والظَّرف مع لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، بينما جيء بها مع لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقد أجاب الزَّركشيُّ بقوله: "حيث قُصد التَّنصيص على الإفراد؛ ذكر الموصول والظَّرف، وحيث قُصد أمر آخر؛ لم يذكر الموصول إلَّا مرَّة واحدة؛ إشارة إلى قصد الجنس وللاهتمام بما هو المقصود في تلك الآية، ومثل لذلك بموضع سورة الرَّحمن، قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرحمن: 29]، والمقصود منها: عُلوُّ قدرة الله تعالى وعلمه وشأنه، ولم يقصد إفراد السَّائلين"[1].

من مواطن الجمال في الآية، طباق الإيجاب:

الجمع بين جمال المبنى والمعنى، من بلاغة القرآن الأسمى

بين ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ و﴿تَكۡفُرُواْ﴾ طباق إيجاب؛ لأنَّ اللَّفظَين موجبان غير منفيَّيْن، وقد جاء الإيمان في سياق الأمر، بينما جاء الكفر في سياق الشَّرط الدَّالِّ على التَّهديد والوعيد.

من لطائف التَّذييل بالعليم الحكيم:

علمه بخلقه وحكمته في تدبيره، ظاهرة في تعبيره

واللَّه عَلِيمٌ بخلقه، لا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمالِ عباده المؤمنين والكافرين شيء، حَكِيمٌ في جميع أفعاله وتدبيراته[2]، وجاء ختام الآية بوصف اللَّه بالعليم المحيط الّذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وبالحكمة وحسن التَّدبير والإبداع في ملكوت السَّموات والأرض، فمِن مقتضى علمه ألّا يخفى عليه ضلال الضَّالين، ولا هداية المهتدين، ومِن مقتضى حكمته أن يجزي بالكفر عذابًا، وبالإيمان نعيمًا، وأن يجعل من عباده: المؤمنَ المهتدي، والضالَّ الغاوي[3].

(1) الزّركشّي، البرهان، ص: 73.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغَيب: 11/270.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1977.

دلالة تقديم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ في آخر الآية الكريمة:

اختيار ألفاظ مسك الختام، موحيّةً بفحوى بلاغة الكلام

قدَّم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ في الآية؛ وهي قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وذلك لمناسبة سياق الكلام مع أهل الكتاب؛ فالله يعلم ما في نيَّاتهم من سؤالهم للرَّسول ﷺ، بنزول كتابٍ من السَّماء؛ تعجيزًا له ﷺ، وهو تعالى حكيمٌ في تقديره عذابَ الكافرين والظَّالمين.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»